الفنون الجميـــلة

الفن ترتيب أجزاء متفرقة ترتيباً اختيارياً حسب فكرة معينة لتؤدى إلى غاية معلومة ، هى أن يُخلق من تلك الأجزاء كلاً واحداً ، أو خلقاً جديداً يثير فى النفس عاطفة الجمال . فهو إذن إنتاج حر للجمال ، لا الجمال الواقعى فحسب ، بل مزيج من الجمال الواقعي والجمال المثالى . فلا بد من أن توجد فكرة مثالية عند الفنان يحققها ويعبر عنها بمساعدة الواقع . ويتخذ الفن فى تعبيراته عن تلك الفكرة أشكالاً مختلفة هى ما نسميه بالفنون الجميلة Les beaux-arts . فالفنون الجميلة إذن ، هى مختلف حالات الانفعالات الجمالية التى ينفعل بها الفنان إزاء أشياء معينة ، فيحاول أن يعكسها ويعبر عنها ، لكى يتذوقها غيره ، فينفعل بها كما انفعل هو

والفن فى تعبيره عن هذه الفكرة يخاطب الحواس ، لا الحواس كلها ، بل هو فى الواقع يخاطب حاستين منها فقط هما : السمع والبصر ؛ وعلى ذلك تنقسم الفنون الجميلة إلى مجموعتين :

(ا) ما يخاطب السمع وهى : الموسيقى : (سواء أكانت موسيقى صامتة ، أم يصاحبها غناء مفرداً وجوقة) والشعر

(ب) ما يخاطب البصر وهي : النحت والعمارة والنقش[1]

ولكن ، هل الفنون جميعها على درجة واحدة من السمو والرفعة ؟ أو بمعنى آخر : هل هناك فنون أرقى وأرفع من غيرها ؟ وإن كان الأمر كذلك ، فعلى أى أساس يمكن تصنيفها وترتيبها إلى فنون راقية رفيعة ، وأخرى أقل منها ؟

لقد رأينا أن الفن هو الإنتاج الحر للجمال ، ورأينا أيضاً أنه لا بد من التعبير عن فكرة ما فى الفن ؛ فقانون التعبير هو أهم قانون عام مشترك بين كل الفنون ، وعليه يجب أن يقوم التصنيف . فالفن الذى يكون أكثر تعبيراً وأغنى فى وسائل تعبيره من غيره يكون هو الأرقى . وليست الفنون على درجة واحدة من تلك الحرية فى التعبير ، فنحن نجد مثلاً أن حرية التعبير أقل ما تكون فى فن العمارة ، والفنان المعمارى مقيد إلى أبعد حد ؛ بينما تتمتع الفنون الأخرى بحرية فى التعبير أوسع من ذلك ، مع تفاوت فيما بينها . كذلك تختلف قوة تعبير كل فن عن الآخر إزاء شىء واحد بالذات ؛ فالموسيقى مثلاً يمكنها أن تصور لنا منظر عاصفة عنيفة تصويراً أبلغ وأعمق مما يصوره لنا النقش مثلاً ، فهى تعبر عنها أحسن تعبير منه ، وتثير فينا من المواطف والوجدانات ما لا يثيره هو فينا إن تعرض للتعبير عن ذلك المنظر . كذلك يعجز النقش عن أن يساوى الشعر فى قوة تعبيره وعمق تصويره ، فهناك آثار شعرية عظيمة نعجب بها كل الإعجاب ، وتثير فينا العاطفة الجمالية كأقوى ما تكون ، ولكن النقش — أو غيره — يعجز عن تصويرها فى مثل روعة تصوير الشعر لها . فمثلاً صور لنا ڤرجيل فى قصيدته le renommé « صورة رمزية لمسخ عظيم هائل ، له ملء عينين وملء فم ، تمس قدماه الأرض ، ويبلغ رأسه عنان السماء » فأبدع فى تصويره كل الإبداع ، وأثار إعجاب كل من قرأها . هذه الصورة الرمزية ماذا تثير فينا لو فرض أن حاول النقش أن يحققها ويعبر عنها ؟ وأغلب الظن أنه سيخرجها لنا صورة غريبة تثير فينا الضحك وتبعث على الهزؤ والسخرية[1] .

وقد أجمعت الآراء على القول بأن الشعر هو أرقى الفنون الجميلة ، فهو يحتل المكان الأول بين سلسلة الفنون لأنه أقواها على إلهاب النفس ، وتحرير المخيلة ، والصعود بالإنسان إلى أرقى الأفكار وأسماها . ولا يكتفى الشعر بالتعبير عن الصور الحسية وعن المواطف الجياشة وتصويرها كما تفعل سائر الفنون الأخرى ، بل يمتاز عنها جميعاً بميزة أخرى هى أنه يمكن أن يعبر عن المعانى

(١) هناك رأي آخر يقول بوجود مجموعة ثالثة من الفنون تخاطب الحاستين معا « السمع والبصر » مثل الرقص والخطابة . ولكن الواقع أن الرقص والخطابة ليسا في ذاتهما فنين بمعني الكلمة . فالرقص لم يعتبر فنا إلا لمصاحبة الموسيقى له ، والموسيقي من أرفع الفنون الجميلة ، وهي في الحقيقة الجزء الفني في الرقص . أما حركات الرقص المنسقة المتزنة نفسها فليست فنا . ويشترط في الفن أن يكون تزيها بمعنى ألا تكون له غاية أخرى غير التأثير الجمالى . وقانون الفن هو « الفن للفن » . وذلك ما لا نجده في الخطابة . فليس المقصود من الخطابة إيجاد ذلك التأثير الجمالى أو توليد عاطفة الجمال فقط ، بل إن لها غاية أخرى هى إقناع المستمعين بما يعرض له الخطيب في خطبته ، ومن هنا لا تعتبر الخطابة فنا . وما يصدق على الخطابة يصدق على البلاغة ، وقد قيل إنها فن . والبلاغة فن لو أريد بها مجرد القول الحسن — كما يقول كنت — ولكن ليست هذه غايتها . نعم ، إنها تولد في الانسان العاطفة الجمالية ؛ ولكن ذلك لا يهم لأنها غرضها الأساسى هو استخدامها للاقناع وغير ذلك فهى ليست فنا . أنظر في ذلك :

(1) Kant : Critique du jugement. trad. Barmi. P. 287
(2) V. Cousin : Du vrai, du beau et du bien. P. 191 et suiv.
(3) H. Marion : Leçon de psychologie. P. 429.

(١) فيكتور كوزان : الحق والجمال والخير ص ١٩٥ — ١٩٦

المجردة ، مثل فكرة « الله » وفكرة « الوطن » وغيرها مما يعجز عنه باقي الفنون ، وذلك لأن أداة الشعر الكلام ، ويمكن أن يؤدي الإنسان بالكلام ما لا يؤديه بغيره[1] . فكلمة « الله » أو « الوطن » وحدها تحمل من المعاني ، وتثير من العواطف والانفعالات والخواطر ما يقصر عن حمله وإثارته أي أداة أخرى من أدوات التعبير في الفن

ويأخذ « هجل » على الشعر أنه لا يعرض علينا الشيء المراد تصويره مرة واحدة ، أي أنه لا يعرض علينا كل الخطوط واللامح الجمالية المختلفة التي يصفها بحيث نراها كلها لأول وهلة بعضها بجانب بعض مثلما نرى في النقش مثلاً ، إذ يكفي أن ننظر إلى لوحة من اللوحات فنرى كل اللامح المعبر عنها دفعة واحدة . فالشعر يعرض علينا الشيء الذي يصوره شيئاً فشيئاً على دفعات ، وهذا ناتج من طبيعة أداة الكلام . فني كل بيت مثلاً يعرض علينا جزءاً من تلك اللامح ، ولا تكمل الصورة إلا بكمال القصيدة . فهو من هذه الناحية إذن أقل منزلة من النقش . ولئن كان هذا عيباً في الشعر فإنه من جهة أخرى ميزة يمتاز بها على غيره ، وذلك حين يعرض لبعض المشاهد التي لا بد فيها من التسلسل والتتابع حتى تستكمل ظهورها . فالنقش في الحقيقة يمثل حالة معينة وفي وقت بالذات ولا يمكن أن يعرض للحالات التي تتغير وتتابع . فمثلاً يمكن للشعر أن يعرض لوصف عاصفة هوجاء عنيفة فيصور أولاً منظر البحر قبل العاصفة وقد هدأت المياه وصفا الجو وسطعت الشمس ، وقد أخذت سفينة صغيرة تتهادى في رفق على صفحة الماء ، ثم إذا بالجو يتلبد بالغيوم فجأة وتهيج الأمواج وتضطرب وتصفر الرياح وتتقاذف السفينة حتى تغلبها على أمرها وتدفع بها إلى صخرة عظيمة فتنفتح في جانب السفينة ثغرة كبيرة تدخل منها المياه ، وتأخذ السفينة في الغوص والركاب يصرخون ويجرون هنا وهناك وقد تملكهم اليأس والفزع ، ثم طغى البحر على السفينة فابتلعها بمن عليها . كل ذلك يصوره لنا الشعر بسهولة في قصيدة واحدة ولكن يعجز عنه النقش في لوحة واحدة ، فهو لا يمكنه إلا أن يعبر عن حالة واحدة فقط من تلك الحالات المتباينة

وهناك فن آخر لا يقل عن الشعر رفعة وسمواً وهو الموسيقى فهي من أقوى الفنون تأثيراً في النفوس وإيقاظاً للعواطف وإلهاباً للوجدان ، ويمكنها أن تحمل الروح وتتجاوز بها العالم الواقعي إلى اللانهاية . فعنصر اللانهاية واضح جداً فيها ، ولعلها في ذلك تسبق الشعر ، وقد كادت تفوقه لولا ما فيها من غموض وإبهام ؛ فتعبيراتها غير محددة تمام التحديد ، كما نرى في النحت مثلاً ، فهو على العكس منها تماما يحدد موضوع تعبيره بخطوط واضحة لا يمكن أن نخطئها ، مما جعله لا يبعث على الخيال ولا يحمل الروح إلى اللانهاية . فجمال الموسيقى ، وميزتها الكبرى تتجلى في قدرتها على العبور بالروح إلى اللانهاية ، مما جعل بعض الناس يقربها بالدين لأنهما يخاطبان القلب والعواطف ويسموان بالروح عن عالم الواقع . ولعل هذا هو السر في أن المسيحيين يصحبون صلواتهم الكنيسية بالموسيقى . وتأثير الموسيقى في الحقيقة أقوى من تأثير الشعر ، فهناك صلة وثيقة بين أنغام الموسيقى والقلب ، بحيث يمكن للموسيقي البارع أن يلعب بأفئدة الناس كيفما شاء ، إن شاء أضحكهم وإن شاء أبكاهم[1] . وعلى العموم فهناك صلة كبيرة بين الشعر والموسيقى . فالشعر يدخل في الموسيقى على صورة غناء ، فيحدد من تعبيراتها وتصوراتها ، وهو بذلك يقتل ما فيها من لانهاية . كذلك الشعر موسيقى الألفاظ ، يحس الإنسان فيه بأنغام موسيقية غير خافية ، قد تتولد على الأكثر من تكرار بعض حروف معينة وتلازمها[2]

والخلاصة من كل ما سبق أنه ما دامت حرية التعبير وقوته وعمقه وغناؤه هي أساس ترتيب درجات سمو الفنون ورقيها ، فإنه يمكن تبعاً لذلك ، اعتبار الشعر أرقى أنواع الفنون الجميلة ، وتليه في ذلك الموسيقى ، وهي خليقة بأن تسمو عليه لولا غموضها وإبهامها ، وإن كان ذلك يجعلها تمتاز عن غيرها باللانهاية . ويلي الموسيقى النقش ، فهو يكاد يجمع بين قوة تأثير الموسيقى من ناحية وبين تحديد النحت من ناحية أخرى ، فهو أكثر تحديداً وإيضاحاً من الموسيقى ، وأكثر تأثيراً من النحت . ويلي ذلك النحت وهو لا يكاد يبعث على التخيل بشدة ما فيه من التحديد ؛ وأخيراً العمارة وهي أقل الفنون جميعاً في حرية التعبير وعمقه

أحمد أبو زيد
كلية الآداب — جامعة فاروق الأول

(١) نفس المصدر ص ٢٠٣

(١) كما ذكر عن أحد فلاسفة الاسلام وهو الفارابي . أنه عزف على آلة موسيقية صنعها هو نفسه فأضحك السامعين ، ثم عزف فأبكاهم ، ثم عزف فأنامهم

(٢) من ذلك قول بشار :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيف ألم

فهناك موسيقى تولدت من تكرار اللام والميم والنون